الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

العلوم الاجتماعية والإنسانية ودورها في بناء المواطن
ـ اللغة لسانُ الأمّةِ نموذجا ـ

Role of Social and Human Sciences in Building the citizen-Language as an Example-

د.شفيقة العلوي
أستاذة محاضرة - أ - في العلوم اللسانية والإنسانية المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر-
chalaloui@gmail.com

ملخص

لاشكّ أبدا في أنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية تلعب دورا مهمّا في بناء الفرد والمجتمع من أجل ضمان بقائهما واستمرار حضارتهما عبر الزّمكان . واللغة لسان البشر ، بها يتواصلون وينقلون الخبرات والأفكار. فهي إذا ، أداة تعكس تجربة المجتمع وثقافته ونموّه أوتراجعه تقدمه أوانتكاساته. إنّ اللغة مرآة الشعوب والحضارات ، والجسر الذي يربط الخلف بالسلف ، ويعرفهم بالعادات والتقاليد والمبادئ الكفيلة برسم سياسة المستقبل وأمنه اللغوي والاجتماعي والثقافي.

فإذا صلح لسان الأمّة ، صلحت شعوبها وتمكّنت من التّعايش وتجسيد فعل المواطنة، ومحاربة التّمزّق الجغرافي واللّغوي وقلّت الانقسامات المحليّة .وإذا توطّدت وحدتها اللسانيّة بسطت (الأمّة) هيمنتها على المستوى الداخلي والخارجي.

الكلمات الدالة: اللغة، الأمن الثقافي واللغوي، التمزق الجغرافي، اللغة وفعل المواطنة.

Abstract

There is no doubt that Social and Human Sciences play an important role in building the individual, society and maintain survival and continuity of civilizations through the ages. Language, being the medium of expression among people (communication, exchange of experiences and ideas) is considered as a tool that reflects the experience of society, its culture (customs and traditions), progress or regress. Language, thus, contributes in building the future of nations and nobody doubt its importance.

Keywords: *Sociology and Human Science, Cultural Security, Political and Geographical Security- Language and Citizenship.*

مقدمة

تعتبر اللغة عاملا رئيسيا من عوامل تحقيق الشّخصية الفردية والوطنية والقومية على حدّ سواء. وذلك لأنّها فن وعلم وسلاح استراتيجي يبني المجتمع ويضمن بقاءه واستمرار حضارته عبر الزمان... فباللغة يقوم الفرد ويصلح المجتمع بصلاحه، ويبرز دوره في مسرح الحياة ، إذ يسهم (أي هذا الفرد) في بناء المجتمع وصنع قراراته . فإن سقطت اللّغة عن لسان هذا الفرد

ونأى عنها في الاستعمال اليومي وانحرف عن أدائها تهلهلت شخصيته وضعفت وتجاذبته الأطماع والإغراءات الخارجية.

إنّ الطفل يُولد على الفطرة، خالي الذهن تماما من القيم الأخلاقية والمعايير المثالية وغير مدرك لعادات وتقاليد وميراث مجتمعه، ولن يتأتى له ذلك إلا باللغة لسان قومه يتشرب منها وبها الثقافة والأخلاق والقيم الإنسانية، فاللّغة إذا « **هي علمٌ وفن صناعة المواطن الصالح** »[1].

1ـ دور اللّغة في تنشئة الفرد واستمرار المجتمع

إنّ وظيفة التّعليم عند كلّ الشّعوب هي إعداد الفرد نفسيّا واجتماعيا وفكريا على حد سواء ليغدو فاعلا قادرا على تحقيق وظائف منوطة به في مجتمعه. واللّغة وسيلة ذلك، فهي التي تزوّده بالمعارف وتنقل إليه تراثه الثقافي والديني والتاريخي، فيتمكّن من الاندماج في المجتمع والمواطنة فيه . وينغرس فيه حبّ هذا التراث والاعتزاز به، فيتحقّق بذلك كيان المجتمع وتُبنى قوميته.

صحيح إنّ اللّغة كما قال ابن جني « **أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم** »[2] فيتواصلون ويتبادلون الخبرات والأفكار، ولكنّها إلى جانب هذا كلّه مرآة تعكس الأمة بأفكارها وخبراتها، وهاهو الشّعر – مثلا – يعكس لنا أصناف الحياة الاجتماعية منذ العصر الجاهلي، فقد تجلّت منه مظاهر الحياة الاجتماعية ببدويّتها ومدنيّتها، بغناها أو فَقرها، بحروبها وعقيدتها، بجمالها وقفار صحرائها... الخ.

إنّ اللغة ثقافة وتوحّد، فـ « **الذين يتكلّمون لغة واحدة يكوّنون كلاً موحّدا ربطته الطبيعة بروابط متينة وإن كانت غير مرئية. ومن هنا، كانت لغة الأمة هي الهدف الرئيسي عند المستعمرين الطامعين في استعباد الشعوب ومحاولة السيطرة عليها. ولن يتحوّل الشعب أوّل ما يتحوّل إلاّ من لغته، إذ يكون منشأ التحوّل من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ لا صورة محققة في الوجود** »[3].

إنّ اللغة علم واسع ينغرس في عقول أبنائها كلما سَعُوا لاكتسابها وإحلالها في لسانهم. فهي أداة تزوّدهم بالعلوم والمعارف ، وبواسطتها ينهلون تاريخ الشّعوب وفنونهم. إنّها أداة لتوحيد أبناء المجتمع وهيمنتهم، إذا غدت لسان حالهم في مراكز التّعليم المختلفة الأطوار ووسائل الإعلام ودُور الثقافة «**اعلم أنّ لغات أهل الأمصار إنّما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين بها** »[4]. وها هي العربية، حين كانت قوية بدينها وأبنائها – زمن انتشار الإسلام والفتوحات – غدا التّأليف لا يتمّ إلا بها، وأمّا البحث فيها وفي ألفاظها وأصواتها ومتونها اعتزازٌ وافتخارٌ. وهو ما أكده القدامى كالبيروني حين قال « **والهجوُ بالعربية أحبّ إليّ من المدح بالفارسية** »[5].

ولم يكتف – نتيجة ذلك – الآخرُ/ الغربُ بترجمة مؤلفات العرب المتنوعة كمؤلفات ابن رشد والرازي والخوارزمي وابن سينا وابن خلدون... الخ، بل نقل أيضا مؤلفات اليونان التي ترجمها العرب ككتب الفارابي وأرسطو « **والحق إنّ القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني في القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمّد وبفضل هذه الترجمة، اطّلعنا على محتويات اليونان وهذا حق لا مراء فيه، فكتاب فن الشّعر لأرسطو لم تعرفه أوروبا إلا عن طريق تلخيص ابن رشد الذي ترجمه المستشرق الألماني هرمن في القرن 13 للميلاد** »[6].

إنّ اللّغة ترتبط . إذًا . بكيان الفرد والمجتمع ؛ وهوارتباط نابع من اعتبارات دينيّة وحضاريّة ونفسيّة. ولا تحصل الحضارات وتتفاعل، ولا يتحقّق وجود الأمّة إلا عن طريق اللّغة. فبواسطتها تنقل المعارف ، فينغرس في الناشئة حبّ التراث الثّقافي والاجتماعي إلخ، وحبّ التّمسّك والاعتزاز به .

وهكذا يكون للأمّة والجماعات الانسانيّة كيانهما وتماسكهما وشخصيتهما المتميّزة « **إنّ التّاريخ يحتّم علينا أن تكون اللغة التي نتعلّم بها هذا التّراث هي اللّغة التي تبقي على هذا التّراث وتحافظ عليه ، وتعمل على نشره وازدهاره ... وأعني بها اللغة العربيّة** »[7].

فباللّغة يكون التّفاعل والتّواصل . ولذلك ، فإنّ بقاء لغتنا وتمكّنها من أداء دورها الإنساني وتفعيل مواطنة الفرد داخل مجتمعه يعدّ معلما من معالم حياتنا الحاضرة ، وطريق أساسيّ من طرق بناء المستقبل والانصهار فيه .فـ « **نحن أمّة لأنّنا وحدة روحيّة لنا بلاد نقطنها ، وتاريخ نرجع إليه ، ولغة حيّة نتكلّمها ... وإرادة تحملنا على السّير في سبيل الوصول إلى ما نأمل** »[8].

وهذا مايؤكّده التّاريخ ؛ فقد حرصت فرنسا . من أجل تعزيز وتوطيد تواجدها الاستعماري السياسي والفكري في الجزائر . على القضاء على اللّغة العربية لسان حال المجتمع وثقافته ، وإماتتها ، لتقطع كلّ أواصر التّماسك بين أبناء هذا اللّسان ، وتبني لهم بذلك تاريخا ممسوخا مشوّها، لا أصالة له ولا وحدة له .

فاللّغة . إذًا . تُكوِّن الناسَ أكثر ممّا يكوّنها النّاسُ ، وتصنع العقول والافكار والقيم أكثر ممّا تصنعها العقولُ والأفكار[9]. إنّ اللغة هي مخزون المجتمع من القيم والثّقافة والتاريخ . إنّها الإرث الحضاريّ الإنسانيّ ...

2ـ اللغة ضدّ التمزّق اللّساني والجغرافي

إنّ هيمنة اللّسان على الشّعوب أقوى من أيّ سيطرة سياسية أو عسكرية . إنّ اللّغة المهيمنة السيّدة هي لغة الشّعب الغالب ، تقوى بقوّته وتضعف بضعفه « **فحينما كانت روابط القوة لفائدة الدولة الإسلامية أُسندت شرعية احتكار السلطة لفائدة اللغة العربية ، ونُهي عن غيرها من اللّغات الأعجميّة لما فيها من رطانة ومكر وخديعة... أمّا حينما أُخضعت الدول الإسلامية وفقدت سلطتها، فسدت اللّغة العربيّة على الإطلاق** »[10]. وها هي اللّغة العربية – اليوم – تعاني أزمة حقيقية، أزمة في الفرد الذي ينظر إليها نِظرةً دونية ويراها

غير قادرة على أن تبسط هيمنتها من جديد على المستوى التقني والتكنولوجي والإعلامي والاقتصادي ؛ وأزمة أخرى أكثر خطورة هي أزمة لسانيّة إمبريالية على رأي جون لويس كالفي[11] .فرضتها الدّول الغالبة القويّة اقتصاديّا واستراتيجيا حين هيمنت على الشّعوب المستضعفة ، وغلّبت اللهجات المحليّة فتزعزعت ثقة الفرد في نفسه وقوميته وسيادته، وانقسم إلى مجتمعات صغرى وهو يلهث وراء لغة الآخر، يقبع خلفه، يستجدي المعرفة والحاجيات الاستهلاكية منه، و يلوّن فكره بألوان ثقافة غريبة عن بيئته، وهنا يكون الانفلات والانسلاخ من الذات.

إنّ استعمال لغة واحدة بين أبناء الشّعب سبيل لتقاربهم وتفاهمهم ، وانصهارهم تحت وحدة ترابيّة ، مكوّنين أمّة واحدة تجتمع تحت لواء ثقافة موحّدة وتراث اجتماعيّ واحد . وهذا ما حدث للّغة الألمانية التي وحّدت بين دويلاتها الّصغرى ، فكوّنت منها أمّة قائدة في هذا القرن التكنولوجي الذي نعيش فيه . وكذلك كان حال إيطاليا . وعلى أساس اللّغة المشتركة انفصلت هولاندا عن بلجيكا و، وإيرلندا عن بريطانيا .

فنظرا لهذه الأهمية الكبرى التي تحتلها اللّغةُ لسانُ الأمّة في تكوين الفرد و بناء المجتمع ،نادت التّربية الحديثة – اليوم – بوجوب العناية باللّغات القوميّة الوطنيّة للطفل في المدرسة ، بحيث يجب أن تحتلّ مركز الصّدارة . و تكون الأهمّ ضمن البرامج التّعليميّة البيداغوجيّة التي يكتسبها . وأن يتمّ التّعليم القاعدي (الأساسي) بها لا بغيرها من اللّغات الأجنبيّة أو اللّهجات المحليّة.

فلا نكاد نختلف إذا ما قلنا إنّ اللّغة سبيل لتحقيق وحدة اللّسان اللّهجي ، و منع التّمزّق الجغرافي إلى دويلات صغرى متناحرة . وإنّ التّاريخ الإنساني ليؤكّد هذه الوظيفة الخطيرة التي تتميّز بها اللّغة. فبعد الحرب العالمية الثانية سعت الدول الأوروبية كفرنسا وبريطانيا وألمانيا إلى بسط سيطرتها على شعوبها عن طريق فرض استعمال لغاتها في الخطابات اليوميّة والرّسميّة وكذلك فعلت الصين في كوريا الشمالية واليابان، لكي لا تنقسم اللّهجات فتتمزق مجتمعاتهم. والإسلام حين جاء وحّد القبائل التي باتت متصارعة متناحرة في جاهليتها تحت لواء لهجة قريش، لسان هذا الدين الجديد، فقويت الأمة الإسلامية وكان لأبنائها أدوارهم التي حفظها التاريخ عبر الزمن.

3ـ اللّغة تحارب العنف اللّساني و تبني الأمن الثّقافيّ

إنّ اللّغة تواصل لا مجرد اتصال. والتّواصل ينطوي على قدر كبير من القيم الاجتماعيّة والإنسانية. والحياة لا تستقيم بالباث وحده ، لأنه لابدّ من تبادل الأفكار والتّجاوب مع الآخر بواسطة اللّغة[12]. إنّ خاصيّة التّواصل تجعل اللّغة قادرة على كسر الحواجز، وتقريب العقول وتفعيل الثقافات وتمازجها.

إنّ اللغة (أو الخطاب اللغوي) و حدة لسانية تعبّر عن القيم بكلّ أنواعها :

- فاللغة توثق صلة العبد بخالقه « **ومن أحسنُ قولاً ممّن دعَا إلى الله** »[13].

- وتدفع الإنسان إلى ما هو أفضل وإنتاج الأمثل.

- وتحمل برصيدها الثّري قيما تتصّف بالصّدق والحقّ والمساواة والأخوّة والعدل والتّسامح...الخ.، فيسمو بها الفرد وترقى المجتمعات.

وعليه، فإنّ العنف اللّغوي هو انحراف اللّسان عن كلّ مستويات القيمة الإيجابية وانكسار للقواعد والمُثل. والعربية لسانٌ حارب هذا العنف منذ الأزل، في محاولة لإرساء مجتمع آمن يسوده الاستقرار والطمأنينة اللذان يكفلان للفرد – في حال تحققّهما – إبراز دوره في المجتمع والمساهمة في بنائه.

لقد حاربت اللّغة العربيّة العنف في لسان أبنائها وسعت إلى محوه بكلّ الطّرق العقابيّة أو الثّوابيّة ؛من ذلك ما رُوي عن الرّسول الكريم(ص): « **عليكم بالصدق فإنّ الصّدق يَهْدِي إلى البرّ وإنّ البَر يهدي إلى الجنة . وإيّاكم والكذب فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النّار** »[14].

إنّ اللغة المستخدمة اليوم في الحياة اليومية أُفرغت من الكثير من قيمها الإيجابية، وهذا نتيجة هيمنة الغالب عليها الذي راح يروّج لسلعه الإنتاجية وأفكاره الإعلامية بلغته الخاصة . فعمّ الفساد اللّغوي اللسانَ العربي في تراكيبه ومفرداته واشتقاقاته وأصواته ، وحتى بعض معانيه التي تمثّل بحق المخزون الثقافي التاريخي لأيّ مجتمع. وتراجعت بذلك اللّغة العربيّة عن الخطاب وما عادت مُهذّبة للعقول.

« **إنّ العنف اللّساني يختلف من فرد لآخر، ومن مجتمع لآخر؛ إلا أنّ المشهد أصبح ظاهرة مدمّرة انعكس على حياة الأفراد والمؤسّسات على حدّ سواء** »[15] وبرزت بأشكال متباينة:

• عنف فردي لساني كشتم الأفراد والعباد والدّين بألفاظ رذيلة نابية يمجّها الذوق الجماعي وينبو عنها الخلق الإنساني؛ أوالاعتداد بالنّفس والزّهو بها باطلا أو قول الزور والكذب والنّميمة. وهي القيم السّالبة التي يحاربها الدّين وكافة الأعراف عند مختلف الشعوب.

• عنف لسانيّ سياسيّ يتمثّل في سعي الاستدمار لفرض سيطرته على الشّعوب الضّعيفة وجذبها إليه وإحلال لغته محلّ لغتها القومية.

• عنف لساني اجتماعيّ ويتمثّل في تجاهل الآخر، والتّعدي عليه وانتهاك حقوقه الاجتماعية والنّفسيّة وعدم مراعاة مصالح الفرد داخل المجتمع . إذ تغدو المنفعة الخاصة هي الهدف والغاية . فيفقد الفرد ثقته بالآخرين وتُنتزع منه القيم

الإيجابية – تدريجيا – وبلا وعي منه، وفي مثل هذه الحالة يصبح الغش وسيلة ضرورية والكذب منفعة براغماتية والتحايل ذكاءً والتّعدي على الغير شجاعةً والتكبّر قوة والحياء ضعفا والكلمة الطيبة التي تنطوي بداخلها معاني السماح والخير والمساواة جُبناً . وتشيع أنماط حكائية شعبية تصبح قانونا لهذا المجتمع مثل:

- طاقْ عْلَى مَنْ طاقْ.
- الحُوتْ يَاكُلْ كُلْ شِي.
- ما عَنْدَكْش لَكْتافْ.
- رُوحْ شوفْ لَيكْ حِيطْ يَسَنْدَكْ.
- راك مسنود فُور.
- ماشي شاطر ...انتَ.
- ألّي قرا قرا بكري.
- ما عندك ما دّير.
- كوّر واعط لعوّر.
- ازظم ولا ياكلوك.
- كُول ولا ياكلوك إلخ...

إنّ مردّ العنف اللساني هو تمزّق الأمّة وافتقاد المعيار القيمي للغتها. فيتفكّك الأفراد، وتنحطّ المجتمعات، وتتصارع الحضارات « **إنّ الأصل في اللغة التّربية والتّهذيب، والكلمة الدالة هي القادرة على الانطلاق من المخزون القيمي ، لتلمس واقعا يعيشه الفرد أو المجتمع ، وتدفع إلى الأسمى في المعنى والحياة. وبالعكس ، فإنّ العنف اللسانيّ ينزل بالفرد والمجتمع إلى الدونيّ ، ويدمّرما أ ٔ برته اللّغة من ثقافة وحضارة وقيم ...**»[16] . وبذلك يتراجع الأمن الثّقافي للشّعوب والأمم .

– هذا هو إذاً العنف اللّغوي الذي يهُزّ المجتمعات ويدمّر أواصرها ويُكسِر همّة الأفراد، فتزداد صراعاتهم وتتشعّب صور البون بينهم، وتتبدّد طاقاتهم. وتضيع مواردهم التّاريخيّة والحضاريّة.

• عنف لغويّ إعلامي: ويظهر من خلال ما تقوم به المؤسّسات الإعلاميّة وبخاصة القنوات الفضائيّة الخاصة التي تبثّ الرسالة الإخبارية ضمن قوالب جديدة ، قد تعتمد فيها بعض المقاطع الإشهارية البذيئة والخليعة أوجمال الحسناوات المُغري أو حركاتهنّ التي لا تخلو من مخاطر أخلاقية تؤثّر سلبا على شخصيّة الطّفل والفرد اللاواعي، فتهدّم أواصر المجتمع وتضرّ بكينونته المستقبليّة.

هذا هو العنف اللّغويّ، فإن نأى عنه الفرد والمجتمع، تحقّق لهما الأمن الثقافي وتمكّنا من أداء أدوارهما بشكل وظيفيّ . داخل المجتمع ، فيكون لهما الوجود النّفعي.

وقد صدق اللّساني فرديناند دي سوسير حين اعتبر اللّغة نظاما . فهي بحقّ نظام لسانيّ وأخلاقيّ واجتماعيّ . إذا هيمن على الفرد تجلّى في أداءاته اللّغويّة و السّلوكيّة، والفكريّة.

الهوامش

1- محمد لبيب: التربية وبناء المجتمع، القاهرة، ص 317.

2- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار،القاهرة 1956 ج1، ص 17. وسر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة 1954ج1، ص 4.

3- مصطفى صادق الرافعي: من وحي القلم، دار المعارف، مصر. ج3، ص 126.

4- ابن خلدون: المقدمة، الدار التونسية للنشر، 1984، د1، ص 457 – 459.

5- و6- حضارة العرب، ج /لابون، دار الفكر العربي ، ص 567-568.

7- تركي رابح :أصول التربية والتّعليم ، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر ، 1990 ، ص 320 ، 333 بتصرّف .

8- نقولا زيادة : العروبة في ميزان القومية ، دار الثقافة بيروت ، ط 5 ، ص 25 . وأيضا جورج شهلا : الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4 ، 1976 ، ص 73

9- تركي رابح : أصول التربية والتعليم ، ص 340

10-اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 2010، ص 147.

11- Jean Louis Calvet : Linguistique et colonialisme, Paris, Payot, 1974, p.10—12.

12- سمير استيتية: اللسانيات – المجال والوظيفة، عالم الكتب، الأردن، 2005، ص 554.

13- سورة فُصلت، الآية 33.

14- صحيح الترمذي: تحقيق سمير البخاري، دار إحياء التراث، بيروت، 1995، ج1، ص 147.

15- سمير استيتية، المرجع السابق، ص 22.

16- اللسان العربي وإشكالية التّلقي ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، ص 24 .

المراجع

1- ابن جني : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار،القاهرة 1956 ، ج1

- سرّ صناعة الإعراب ، تحقيق مصطفى السقا ولجنة من الأساتذة، القاهرة 1954

2- ابن خلدون : المقدمة ، الدار التونسية للنشر ، 1984

3- جورج شهلا : الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ، ط4 ، 1976

4- تركي رابح : أصول التربية والتعليم ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1990

5- سورة فصلت ،الآية 33

6- سمير استستية : اللسانيات المجال والوظيفة ، عالم الكتب الأردن ،2005

7- صحيح الترمذي، تحقيق سمير البخاري، دار إحياء التراث بيروت، 1995

8- مجموعة مؤلفين : اللسان العربي وإشكالية التلقي ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 2010

9- مصطفى صادق الرافعي : من وحي القلم ، دار المعارف ، مصر دت ، ج3

10- محمد لبيب : التربية وبناء المجتمع ، دت ، القاهرة.

11- نقولا زيادة : العروبة في ميزان القومية، دار الثقافة بيروت، ط5 .